التنوع الصوتي في النص القرآني
(دراسة دلالية)

د. نجيب علي عبد الله السودي*

تاريخ وصول البحث: ٢٠١٢/٤/١٥م **تاريخ قبول البحث: ٢٠١٣/١١/٣م**

ملخص

يَسعَى هذا البحثُ للإجابَةِ عَن عِدَّةِ تَساؤلاتٍ تَتَعلَّقُ بالظَّواهِرِ الصَّوتيَّةِ فِي القرآنِ الكَرِيمِ وما تُحدِثُهُ مِن أثرٍ فِي نَفسِ السَّامِعِ، مِن خِلال إخضاعِ هَذِه الظَّواهِرِ للدِّراسةِ والتحلِيلِ واستِكنَاهِ العَلاقَةِ الخَفِيَّةِ بَين الظاهِرَةِ الصوتِيَّةِ والمَعنى المرادِ مِن الآيةِ، رَكَّزنا فِيهِ عَلى جُزئيَّةٍ دَقِيقةٍ نَحسبُ أنَّها تَحتاجُ إلى إنعامِ نَظرٍ وتَمحِيصِ فِكرٍ، وهِيَ التنوُّعُ الصَّوتِيُّ في أحكامِ النُّونِ الساكِنةِ والتَّنوِينِ، وإيحاءاتِ هَذا التنوُّعِ عَلى مُستوَى المَعنَى، اتَّكأنا فِيهِ عَلى أقوالِ عُلمَاءِ العَربيَّةِ الذين عُرِفُوا بِطولِ بَاعِهِم فِي الدِّراسَةِ الصَّوتيَّة، وأقوالِ أهلِ التفسِيرِ في شَرحِهم للآياتِ، ثُمَّ عَزَّزنا ذَلكَ بِما تَوصَّلَ إليهِ الدَّرسُ الصَوتِيُّ الحَدِيثُ مِن نَظرِياتٍ وتَحلِيلاتٍ لَم تُخالِفْ ما قَدَّمَهُ عُلَماءُ العَربيَّةِ فِي هذا المجالِ، لنَخلُصَ مِنهُ إلى أنَّ لِموسيقا القرآنِ ونَظمِهِ وتَتَابُعِ أصواتِهِ رَوعَةً عِند كُلِّ سامِعٍ حتَّى مَن لا يَفهَمُ العَربيَّةَ، وأنَّ تِلكَ الرَّوعَةَ تَنبُعُ مِن نِظامِهِ الصَّوتِّي البَدِيعِ، ذَلكَ النِّظامُ الذِّي قُسِّمَت فِيهِ الحركَةُ والسُّكونُ تقسيماً مُنوعاً يُجدِّدُ نَشاطَ السَّامِعِ لسَماعِهِ، وأننا بِدراسةِ هذهِ الظواهِرِ نُطوِّرُ مِن عِلمِ التَّجوِيدِ، ونُقوِيِّ العَلاقَةَ بَينَ مُستوياتِ الدَّرسِ اللُّغَوِيِّ.

Abstract

This research seeks to answer several questions related to sound phenomena in the Holy Quran and its relevant impact on the listener by subjecting these phenomena to analysis, and fathoming the subtle relationship between the sound phenomena and the meaning intended by the verse. The researcher, herein, focused upon a very fine aspect that requires deep consideration and scrutiny of thought, mainly, the vocal diversity in the provisions of the vowelless *nun* and the nunation, and the implications that such diversity provides at the level of meaning, herein, relying on the opinions of Arabic linguists who have been known for their long term expertise in vocal studies; and upon the views of the scholars of exegesis in interpreting Qur'anic verses.

We have then strengthened that by the latest research on vocal studies relating to such theories and analyses which did not violate the views of Arabic linguists in this area so as to conclude there from that the Quran's music, its composition, its sequence of sounds has a charm to listener, even to those who do not understand Arabic. This charm emanates from its exquisite sound system, a system wherein the short vowel and the vowelless letters produce a diversity that invigorates the active level of anyone listening to it. Through the study of these phenomena, we can improve the study of the Science relating to Quranic recitation as well as the study of linguistics aspects.

* أستاذ مساعد، جامعة تعز، اليمن.

Pronunciation, and strengthen the relationship between the strata of linguistic lessons.

مقدمة:

للقرآن الكريم روعةٌ تهزُّ النّفس، وله جمالٌ يبهرُ الألباب، وله سحرٌ تخبتُ له القلوب، وله نغمةٌ تقشعرُ منها الجلود ﴿**اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ**﴾ (الزمر: ٢٣)، وقد كان صناديد العربية أول من أحس بروعة القرآن، وسطوته على القلوب وتأثيره العجيب في النفوس، وقد سردت لنا كتب السير والأخبار كثيراً من القصص والأحداث التي حدثت لهؤلاء الصناديد الذين كانوا على علم بالشعر رجزه وهزجه قريضه ومقبوضه ومبسوطه وبزمزمة الكاهن وسجعه، وبالجنون خنقه وتخالجه ووسوسته، وبالسحر ونفثه وعقده، فلم يجدوه داخلاً تحت واحد منها، فقد وجدوه منفرداً ووجدوا له حلاوة منقطعة النظير(١).

فقد روي أن الوليد بن المغيرة جاء إلى رسول الله ﷺ فقرأ عليه القرآن، فكأنه رق له، فبلغ ذلك أبا جهل ابن هشام فأتاه، فقال: أي عم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً. قال: لم ؟ قال: يعطونكه فإنك أتيت محمداً تتعرض لما قبله. قال: قد علمت قريش أني أكثرهم مالاً. قال: فقل فيه قولاً يعلم قومك أنك منكر لما قال وأنك كاره له. قال: فماذا أقول فيه؟! فو الله ما منكم رجل أعلم بالأشعار مني ولا أعلم برجزه ولا بقصيده مني ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا ووالله إن لقوله الذي يقوله لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه مغدق أسفله وإنه ليعلو ولا يعلى وإنه ليحطم ما تحته. قال: والله لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه. قال: فدعني حتى أفكر فيه. فلما فكر قال: إنه سحر يؤثر، أما ترون أنه يفرق بين المرء وأهله وولده ومواليه(٢).

ومع ما كان عليه كفار قريش من الشرك والعناد والتكذيب فقد كانوا ينجذبون لسماع القرآن ويطيلون الاستماع إليه استطابة لما فيه من لفظ ذي نغم يجذب الأسماع، فتروي السير أن أبا سفيان بن حرب وأبا جهل بن هشام والأخنس بن شريق خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ وهو يصلي من الليل في بيته، فأخذ كل رجل منهم مجلساً يستمع فيه وكل لا يعلم بمكان صاحبه – فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق فتلاوموا، وقال بعضهم لبعض لا تعودوا فلو رآكم سفهاؤكم لأوقعتم في نفوسهم شيئاً ثم انصرفوا، حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة ثم انصرفوا. حتى إذا كانت الليلة الثالثة، أخذ كل رجل منهم مجلسه فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق. فقال بعضهم لبعض: لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود، فتعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا"(٣).

فهذه الروايات وغيرها الكثير تبين قوة تأثير القرآن في نفوس العرب، وفعله في قلوبهم. كان أشدهم عناداً لا ينجو من تأثيره، سمعه عمر بن الخطاب فانخلع قلبه من الكفر وفاء إلى الإيمان، وسمعه أبو ذر فآمن وصدع.

وروي أن أعرابياً سمع قوله تعالى: ﴿**فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ**﴾ (الحجر: ٩٤) فسجد. فقيل له: لم سجدت ؟ فقال: سجدت لفصاحة هذا الكلام(٤).

ولقد أدرك بعض علماء السلف ما يختص به القرآن من سطوة على النفوس وما له من روعة في القلوب، فعد ذلك من أوجه إعجاز القرآن، فذهب الإمام الخطابي إلى أن في القرآن وجها من الإعجاز ذهب عنه الناس فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ من آحادهم، وذلك صنيعه في القلوب وتأثيره في النفوس فإنك لا تسمع كلاماً غير القرآن منظوماً ولا منثوراً إذا قرع السمع خلص له إلى الإقلاب من اللذة والحلاوة في حال، ومن الروعة والمهابة في أخرى ما يخلص منه

إليه[٥]، ويقول الإمام السيوطي: "ومن وجوه إعجاز القرآن روعته التي تلحق قلوب سامعيه عند سماعه والهيبة التي تعتريهم عند تلاوته، أما المؤمن فلا تزال روعته به وهيبته إياه مع تلاوته تصديقاً لقوله تعالى: ﴿**تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ**﴾ (الزمر: ٢٣)، ويدل على أن هذا شيء خص به القرآن أنه يعتري حتى من لا يفهم معانيه ولا يعلم تفاسيره، كما روي عن نصراني أنه مر بقارئ فوقف يبكي، فقيل له: مم بكيت ؟ قال: الشجى والنظم[٦]".

وتتعدد منابع الروعة في القرآن الكريم وتتنوع ويصبح تحديدها ليس بالأمر السهل، يقول سيد قطب: "إن في هذا القرآن سراً خاصاً يشعر به كل من يواجه نصوصه ابتداء، قبل أن يبحث في مواضع الإعجاز فيها، إنه يشعر بسلطان خاص في عبارات هذا القرآن، يشعر أن هناك شيئاً ما وراء المعاني التي يدركها العقل من التعبير، وأن هناك عنصرا ما ينسكب في الحس بمجرد الاستماع لهذا القرآن يدركه بعض الناس واضحا، ويدركه بعض الناس غامضاً ولكنه في كل حال موجود. هذا العنصر الذي ينسكب في الحس يصعب تحديد مصدره. أهو العبارة ذاتها؟ أهو المعنى الكامن فيها؟ أهو الصور والظلال التي تشعها؟ أهو الإيقاع القرآني الخاص المتميز من سائر القول المصوغ من اللغة؟ أهي هذه العناصر كلها مجتمعة؟ أم إنها لشيء آخر وراءها غير محدود"[٧].

نجد نوعاً من إجابة عن تساؤلات سيد قطب في قول للرافعي وهو يتكلم عن منطق القوم حيث يقول: "وقد كان منطق القوم يجري على أصل من تحقيق الحروف وتفخيمها، ولكن أصوات الحرف إنما تنزل منزلة النبرات الموسيقية المرسلة في جملتها كيف اتفقت، فلا بد لها مع ذلك من نوع في التركيب وجهة في التأليف حتى يمازج بعضها بعضا، ويتألف منها شيء مع شيء، فتتداخل خواصها وتجتمع صفاتها، ويكون منها اللحن الموسيقي، ولا يكون إلا من الترتيب الصوتي الذي يثير بعضه بعضاً على نسب معلومة ترجع إلى درجات الصوت ومخارجه وأبعاده"[٨]. ثم يشير إلى علاقة الصوت بالانفعال النفسي قائلاً: "وليس يخفى أن مادة الصوت هي مظهر الانفعال النفسي، وأن هذا الانفعال بطبيعته إنما هو سبب في تنويع الصوت"[٩].

مما سبق نخلص إلى أن لموسيقى القرآن ونظمه وتتابع أصواته روعة عند كل سامع حتى من لا يفهم العربية، وأن تلك الروعة تنبع من نظام القرآن الصوتي البديع ذلك النظام الذي قسمت فيه الحركة والسكون تقسيماً منوعاً يجدد نشاط السامع لسماعه، وهنا فقط يمكننا طرح السؤال الذي يقوم عليه هذا البحث على أنه ينبغي الالتفات إلى أن ما يذكره الباحث من الإيحاءات ليس على سبيل القطع ويمكن لباحثين آخرين أن يصلوا إلى ما لم يصل إليه الباحث.

إشكالية البحث وتساؤلاته:

كيف يمكن إبراز الظواهر الصوتية التي تحدث هذا الأثر النفسي لسامع القرآن؟ وهل يمكن أن تخضع هذه الظواهر للدراسة والتحليل؟ وما العلاقة الخفية بين الظاهرة الصوتية والمعنى المراد من الآية؟

يسعى هذا البحث للإجابة عن هذه الأسئلة من خلال محاولة دراسة ظاهرة واحدة من الظواهر الصوتية المتعددة، مركزاً على جزئية دقيقة يعدها الباحث من دقائق الأمور التي يحتاج المرء فيها إلى إطالة نظر وتمحيص فكر، هذه الظاهرة هي ظاهرة دلالة التنوع الصوتي للحرف المتمثل في أحكام النون الساكنة والتنوين، وإيحاءات هذا التنوع على مستوى المعنى، مستخدماً في ذلك المنهج الوصفي التحليلي.

يحتوي هذا البحث على مبحثين أساسيين: المبحث الأول: يعنى بمفهوم التنوع، وفيه مطلبان: الأول: حول التعريف بالمفهوم. الثاني: خصائص المفهوم.

المبحث الثاني: يعنى بأشكال التنوع الصوتي، وفيه أربعة مطالب: الأول: الشكل الإظهاري. الثاني: الشكل الإدغامي. الثالث: الشكل الإخفائي. الرابع: الشكل الإقلابي. في كل مطلب من هذه المطالب فرعين اثنين: الأول: خاص بالتعريف، الثاني: خاص بالتطبيق. وختم البحث بخاتمة ذكرنا فيها أهم النتائج.

وسنبدأ ببيان ما يجدر البدء به، وهو بيان المصطلح وتحديده لأن مسألة تحديد المفهوم أو المصطلح مسألة أساسية قبل البدء في البحث بتفصيلاته المتعددة، لأننا نعد البدء ببيان المفهوم والمصطلح وسيلة عبور لا يمكن الدخول إلى البحث دون المرور بها، ثم نستعرض أشكال التنوع الصوتي في النص القرآني بأقسامه الأربعة "الإظهار، والإدغام، والإخفاء، والإقلاب" مع إيحاءاتها.

المبحث الأول: مفهوم التنوع الصوتي

بداية نشير إلى أنه يمكن أن توصف أصوات لغة ما من خلال خواصها المادية التي يمكن قياسها وملاحظتها علميا، وكذا من خلال توزع هذه الأصوات في نصوص لغوية أو من خلال وظيفتها في هذه النصوص، إلا أن هذه الأصوات المركبة للنصوص لا تبقى محتفظة بخصائصها وصفاتها التي تميزها على أنها وحدة مستقلة؛ بل تكتسب خصائص جديدة ؛ فالأصوات فيما بينها علاقات خاصة، هذه العلاقات تحكمها قواعد وأصول معينة. فنجد الصوت يدغم في أصوات بعينها في مواضع معينة، وينقلب صوتاً آخر إذا وقع في سياق صوتي معين، ونجده يخفى إذا جاورته أصوات معينة، ويظهر واضحاً جلياً في سياقات صوتية أخرى.

فمثلاً نجد أن صوت النون في كلمة "ينهى" يختلف في كيفية نطقه وصفاته عن صوت النون في كلمة "ينسى". المعروف في أحكام التجويد أن النون الأولى الواردة في كلمة "ينهى" مظهرة لأن حكمها الإظهار، والنون الثانية في كلمة "ينسى" مخفاة لأن حكمها الإخفاء، مع أننا إذا حاولنا أن نبحث عن الجامع بين صوتي النون في الكلمتين سنجد أنهما ينتميان إلى الصوت الذي يرمز إليه كتابياً "ن" وهو أحد الحروف التي تتكون منها الألفبائية العربية والذي جعلنا نضعهما تحت رمز كتابي واحد هو "ن" مع اختلاف نطقهما باختلاف سياقاتهما هو أنهما متماثلان تماماً في نطقهما وصفاتهما عند عزلهما عن سياقاتهما الصوتية ونطقهما منفردين... هذا الكلام يقودنا إلى الجزم بأن التغيرات التي اعترت الصوت في نطقه وصفته إنما هي تغيرات طارئة تعرض للصوت عند وضعه في سياق معين، وتنزاح هذه التغيرات عنه في حال انفراده، فصوت النون مثلاً في "ينسى" يخفى عندما ننطقه في مثل هذا السياق، ولكن ما أن نغير الصوت الذي يليه بصوت أخر غير صوت "س" ونحوه مما يعرف بحروف الإخفاء حتى تزول عنه صفة الإخفاء، وهو ما يجعلنا نحكم بأن هذا الإخفاء صفة عارضة للصوت تزول بزوال السبب.

إن الصوت "ن" عندما ننظر إليه منفرداً غير موضوع في سياق معين يسمى عند الغربيين صيتة phoneme، فإذا وضع في أحد سياقاته الصوتية كما في "ينهى" أو "ينسى" سمي تنوعاً صوتياً Allophone[١٠].

إذاً فما نعنيه بالتنوع الصوتي هو التغيرات التي تعتور الصوت عند وضعه في سياق معين.

ومن تعريفات التنوع الصوتي "Allophone":

ما يعرفه آدرين: بأنه التنوع الموقعي أو المتغير الحر free variant للصيتة[١١].

وعرفه بعضهم: بأنه أصوات الكلام الفعلية التي تكون الصيتات[١٢].

ويرى آخرون: بأن التنوع الصوتي هو الأصوات الأعضاء المختلفة التي تجمعت معاً لبناء الصيتة[١٣].

أما دانيال جونز فيستخدم مصطلح التنوع الصوتي بالإحالة على العضو المعين للصيتة[١٤].

وتتمتع التنوعات الصوتية بجملة من الخصائص يمكن إجمالها فيما يأتي[١٥]:

١- إمكانية قياسها، أي أنها أصوات يمكن سماعها كما يمكن نطقها، وبالتالي قياسها آلياً فهي ممكنة التحقق مادياً.
٢- الاختلاف الموقعي، أي أنها تختلف باختلاف موقعها الذي تحل فيه وإن كانت هذه الاختلافات محدودة عادة.
٣- التقارب الصوتي من حيث المخرج والصفة، بحيث يشبه كل تنوع سائر التنوعات الصوتية الأخرى التي تشترك معه تحت نفس الصيتة.
٤- التوزيع التكاملي، أي أن كل تنوع من التنوعات الصوتية للصوت الواحد يأخذ موقعاً صوتياً معيناً لا يشاركه فيه الآخر. بحيث يكون كل تنوع مكملاً بحلوله موقعاً معيناً للتنوع الآخر الذي ينتمي إلى الصوت نفسه، فيتحقق بذلك التوزيع التكاملي للتنوعات الصوتية ذاتها فوقوع التنوع "ينهى" في هذا السياق هو واحد من السياقات التي يتوزع فيها صوت النون توزيعاً تكاملياً وفقاً للسياقات الصوتية التي تناسب كل تنوع، ولا يمكن لأي تنوع من التنوعات أن يحل في موقع تنوع آخر لا يتناسب معه صوتياً، فصوت النون مثلاً في "ينهى" لا يمكن نطقه كما ينطق صوت النون في "ينسى".

وبذلك يمكننا القول: إن التنوع الصوتي يخضع من حيث كيفية نطقه وصفاته الصوتية إلى الموقع السياقي، وليس لاختيار المتكلم، بخلاف الصوت الذي يمكن للمتكلم أن يستبدل به صوتاً أخر لغرض تأدية معنى مختلف مثل "قام وقاس" فهما تنوعان صوتيان لكنهما ليسا لصوت واحد وإنما لصوتين مختلفين.

وقد حاول بعض اللغويين أن يجمع جلّ الخصائص السابقة في تعريف التنوعات الصوتية للصوت فحددها بأنها: "مجموعات الأصوات التي:

١- لا تغير معنى الكلمة.
٢- كل منها مشابهٌ جداً للآخر.
٣ – وتظهر في سياقات صوتية مختلفة من سياق لآخر"[١٦].

كما يمكننا القول بأنّ الأصوات لا تتحقق تحققاً فعلياً إلا بتنوعاتها الصوتية، ويكون للصوت اللغوي وجهان باعتبارين:

الوجه الأول: باعتبار وجوده الكامن، ويمثل هذا الوجه "الصوت".
الوجه الثاني: باعتبار تحققه الكلامي الظاهر، ويمثل هذا الوجه "التنوع الصوتي".
ونحن في دراستنا هذه سنركز على الوجه الثاني، وهو التنوع الصوتي في النص القرآني.

المبحث الثاني: أشكال التنوع الصوتي في النص القرآني وإيحاءاتها

المتأمل للنص القرآني – سماعاً أو قراءة – يجد كثيراً من التنوعات الصوتية التي تضبط النص بحيث لا يجوز للقارئ الذي يقوم بقراءة القرآن الإخلال بهذه التنوعات، وفي حالة عدم التزام القارئ بهذه التنوعات فإنّ ذلك يعد لحناً ظاهراً يؤاخذ عليه. هذه التنوعات الصوتية وضعت لها قواعد تيسر للقارئ معرفتها والالتزام بها، وقد بذل علماء العربية جهوداً مشكورة في ذلك، تمثلت هذه الجهود في استخراج هذه القواعد وإبرازها وجمعها في علم يهتم بالصوت القرآني، وإعطائه حقه ومستحقه من الأحكام ؛ هذا العلم سمي بعلم التجويد.

ونحن إذا أردنا أن ننطلق في بحثنا هذا لمعرفة أشكال التنوع الصوتي في النص القرآني ؛ فإنه يحسن بنا الاستعانة بقواعد علم التجويد التي تمثل الدراسة الصوتية للنص القرآني. وهنا نشير إلى أن علماء التجويد الذين وضعوا

هذه القواعد قد وصفوها وصفاً دقيقاً يعيننا كثيراً في السير قدماً في توضيح ما نروم إيضاحه مستندين في ذلك على ما أصّلوه، مضيفين ما نرى أنه فَتْح جديد فُتِح لنا به.

"ومن وجد مقالاً قال به وإن لم يسبق إليه غيره، فكيف به إذا تبع العلماء فيه، وتلاهم على تمثيل معانيه"(١٧).

لكن قد يقول قائلٌ ما علاقة هذا الكلام بما أنت بصدده من بيانٍ لأشكال التنوع الصوتي وإيحاءات هذا التنوع في النص القرآني؟

أقول: إن غرضنا مما سبق هو أن نتوصل إلى أن هناك قواعد وضعها لنا العلماء للسير عليها، والاستهداء بها في قراءة النص القرآني وفهمه، فما علينا إلا أن نتنبه لها وننعم النظر فيها، لننطلق منها ونكمل المسير.

من هذه الأحكام والقواعد التي أصلها لنا علماء التجويد والمرتبطة بموضوع بحثنا هنا أحكام النون الساكنة والتنوين، وتعد مباحثها من المباحث المهمة جداً التي لا تخلو منها كتب التجويد ؛ وذلك لكثرة وقوعها في القرآن الكريم، ولما تحمله من إيحاءات كما سيتبين لنا.

للنون الساكنة والتنوين أحكام أربعة ذكرها ابن الجزري بقوله:

وحكم تنوين ونون يلفى إظهاراً إدغام وقلب إخفا(١٨).

وهذه الأحكام الأربعة إنما هي باعتبار ما يأتي بعد النون الساكنة والتنوين من حروف، أي بالنظر إلى السياقات الصوتية لها، فهي عبارة عن تغيرات طارئة تحدث للنون الساكنة والتنوين عند وضعهما في سياق معين، وتنزاح عنها في حال انفرادها، وهذا هو ما قصدناه بالتنوع الصوتي.

إذاً فلدينا أربعة أشكال للتنوع الصوتي في النص القرآني من خلال تحليلنا لأحكام النون الساكنة والتنوين هذه الأشكال هي:

١- الشكل الإظهاري.
٢- الشكل الإدغامي.
٣- الشكل الإخفائي.
٤- الشكل الإقلابي.

وسنبدأ بعرض كل تنوع وكل شكل من هذه الأشكال على حده محاولين إبراز ما تحمله هذه التنوعات من إيحاءات تنعكس بدورها على المعنى، وإنْ كان الأمر من الوعورة والمشقة بمكان. ونحسب أنّ هذا الأمر ستجد فيه – أيها القارئ – من الجدة واللطافة ما يستحق التأمل، وهي ظاهرة لا نزعم تتبعها في كل القرآن وإنما هي إشارات وتلويحات تستحق الوقوف أمامها لاستكناه مكنوناتها، والله يوفق للبلوغ إليها والتوفر عليها.

المطلب الأول: الشكل الإظهاري:

الإظهار في اللغة هو: البيان والوضوح، فالشيء الظاهر هو الشيء البين الواضح، أما في الاصطلاح فهو: إخراج الحرف من مخرجه من غير غنة ظاهرة ولا وقف ولا سكت ولا تشديد في الحرف المظهر، وهذا التعريف يعني أن نخرج النون الساكنة أو التنوين من مخرجها دون غنة زائدة، لأنّ الغنّة صفة أصلية في النون، وحينها لا يجوز الوقف على النون الساكنة أو التنوين بقطع الكلام والتنفس، ولا السكت دون تنفس، ولا تشديد النون الساكنة أو التنوين أو الحرف الذي يليهما. ويكون الإظهار إذا اتصلت النون الساكنة أو التنوين بأحد الأصوات الستة الآتية:

"صوت الهمزة، والهاء، والعين، والحاء، والغين، والخاء"(١٩).

وعلة الإظهار عند هذه الأصوات هي بُعد مخرج النون الساكنة عن مخرج هذه الأصوات، فلم يحسن الإدغام لعدم وجود مسوغ له، ولا الإخفاء لأنه قريب من الإدغام، ولا الإقلاب لأنه وسيلة إلى الإخفاء. ولأنّ علة الإظهار هي البعد

فعلى ذلك يكون للإظهار ثلاثُ مراتب بحسب البعد، فالأولى: عُليا عند الهمزة والهاء لأنّهما الأبعد عن مخرج النون الساكنة والتنوين، والثانية: وسطى عند العين والحاء لأنهما متوسطتان في البعد، والثالثة: دنيا عند الغين والخاء لأنهما أقرب من غيرهما من حروف الحلق إلى مخرج النون(٢٠).

*** إيحاءات الإظهار:**

ما الذي يمكن أن يحمله الإظهار من إيحاءات تلقي بظلالها على المعنى؟ هل يمكن أن تكون هناك علاقة من نوع ما بين الإظهار الذي هو البيان والوضوح بالموقع الذي يرد فيه؟ بمعنى آخر هل يمكن أن يضفي هذا الشكل من التنوعات الصوتية وضوحاً وبياناً على المعنى؟ لبيان علاقة هذا الشكل بالمعنى، سنحتاج لسرد بعض الآيات التي ورد فيها حكم الإظهار وليس الكل؛ لأنّ تتبع كل الآيات التي ورد فيها إظهار من الصعوبة بمكان، ولكن نكتفي بشواهد دالة، ثم ننظر في معنى الآية معتمدين في ذلك على كتب التفاسير في حالة توفر دلالة تشير إلى ذلك، أو الفهم العام لمعنى الآية بما لا يمثل لياً لعنق الآية، أو تعسفاً في التأويل، أو تقولاً على القرآن بما ليس فيه؛ فإننا نعوذ بالله أن نقول في القرآن ما ليس فيه، بل نجتهد في إبراز سر من أسراره الدائمة والمستمرة إلى أن يرث الله الأرض وما عليها، فإن أسرار هذا القرآن ومعجزاته ما تزال تتكشف لنا يوماً بعد يوم.

١ – كانت أول آيات نزلت من القرآن الكريم على النبي ﷺ هي قوله تعالى: ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ**﴾ (العلق: ١–٢). الإظهار في صوت النون عند صوت العين "من علق". والسؤال هنا: لماذا اختار الله هذه المرحلة بالذات (مرحلة العلقية) مع أنّ هناك مراحل قبلها، كمرحلة النطفة أو مرحلة التراب كما ذكرها بعد ذلك في سورٍ أخرى، مثل قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ**﴾ (الحج: ٥)

وللإجابة عن هذا تعددت آراء المفسرين في ذلك، فمنهم من قال: لبيان كمال قدرته تعالى... مع ما في ذلك من رعاية الفواصل ولعلّه على ما قيل السر في تخصيص هذا الطور من بين سائر أطوار الفطرة الإنسانية(٢١).

ويرى الباحث أنه إذا كانت الحكمة هي بيان القدرة فإن خلق الإنسان من تراب ومن نطفة أدل على قدرته تعالى. ورأي آخر تراه طائفة أخرى من المفسرين "أن نطفة الذكر ونطفة المرأة بعد الاختلاط ومضي مدة كافية تصيران علقة، فإذا صارت علقة فقد أخذت في أطوار التكوّن، فجعلت العلقة مبدأ الخلق ولم تجعل النطفة مبدأ الخلق لأن النطفة اشتهرت في ماء الرجل فلو لم تخالطه نطفة المرأة لم تصر العلقة فلا يتخلق الجنين"(٢٢).

وهذا كلام جميل؛ لكننا نجد سر اختيار طور (العلق) دون غيره مع ما فيه من إظهار صوتي يتوافق مع ظهور المعنى بيانه عند أبي حيان حيث يقول: "وإنما ذكر من علق: لأنهم مقرون به، ولم يذكر أصلهم آدم، لأنه ليس متقرراً عند الكفار فيسبق الفرع، وترك أصل الخلقة تقرباً لأفهامهم"(٢٣).

وقال الشنقيطي: "وذلك لأنهم يشاهدون ذلك أحياناً فيما تلقي به الرحم، ويعلمون أنه مبدأ خلقة الإنسان، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: إن المقام هنا مقام دلالة على وجود الله، فبدأ بما يعرفونه ويسلمون به لله، ولم يبدأ من النطفة أو التراب؛ لأن خلق آدم من تراب لم يشاهدوه، ولأنّ النطفة ليست بلازم لها خلق الإنسان، فقد تقذف في غير رحم كالملتحم وقد تكون فيه ولا تكون مخلقة"(٢٤).

إذاً فهم يعرفون ذلك ويشاهدونه ويقرون به، لأنه ظاهر بيّن، فهل يمكننا أن نربط بين هذا الوضوح والبيان في المعنى بالإظهار في الصوت الوارد في "من علق"؟ أترك ذلك لنباهتك أيها القارئ الكريم، فهو بيّن لا يحتاج إلى إنعام نظر.

٢– يقول الله تعالى: ﴿**اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ**﴾ (الأعراف: ٥٩).

جاء الإظهار في صوت النون الساكنة عند التقائها بالهمزة "من إله" وكذا في التنوين عند التقائه بالغين "إله غيره".

معنى الآية: "مالكم من إله غيره" أي: ليس لكم رب سواه، والجملة بيان للعبادة التي أمرهم بها أي أفردوه بالعبادة دون غيره، إذ ليس غيره لكم بإله [٢٥]. ألا ترى معي أنّ معنى الآية واضح كل الوضوح، بيّن كل البيان، شواهده أكثر من أنْ تُعَد وتحصى، فكل ما في الكون يدل بجلاء على أنّه ليس لنا من إله غيره سبحانه.

وفي كلّ شيءٍ له آيةٌ تدلّ على أنّه واحدُ.

فهل يمكننا القول: إن الإظهار الصوتي في الآية ألقى بظلاله على المعنى فزاده بياناً ووضوحاً؟! لا أشك في ذلك.

٣- يمتن الله سبحانه وتعالى على قريش بأنه ﴿**وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ**﴾ (قريش: ٣).

والتنوع الصوتي هو ظهور صوت النون عند التقائه بالخاء في "من خوف" قال ابن كثير في تفسير الآية: "حبسنا عن مكة الفيل وأهلكنا أهله" [٢٦] وقال القرطبي: "أي من خوف الحبشة مع الفيل"[٢٧] وقال الطبري: "معنى ذلك أنه آمنهم مما يخاف منه من لم يكن من أهل الحرم من الغارات والحروب والقتال، الأمور التي كان العرب يخاف بعضها من بعض" [٢٨].

فقد ورد أنهم كانوا يقولون نحن من حرم الله فلا يعرض لهم أحد في الجاهلية يأمنون بذلك، وكان غيرهم من قبائل العرب إذا خرج أُغير عليه. إذاً فأمنهم من الخوف ظاهر لهم، بيِّنٌ أمام أعينهم، سواء أكان ذلك الأمن بإهلاك الحبشة والفيل أم بأمنهم بجوار الحرم مصداقاً لقوله تعالى: ﴿**أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ**﴾ (العنكبوت: ٦٧) وأعتقد أنّ الإظهار في هذا الموضع ارتبط ارتباطاً وثيقاً بمعنى الآية.

٤- وما يرتبط بالآية السابقة قوله تعالى: ﴿**وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ**﴾ (الفيل: ٣).

التنوع الصوتي هنا هو إظهار صوت التنوين عند التقائه بالهمزة في قوله "طيراً أبابيل".

وقصة إرسال الطير الأبابيل معروفة مشهورة فقد رأوها بأعينهم، قال ابن كثير: "وقريش وعرب الحجاز ينظرون ماذا أنزل الله بأصحاب الفيل من النقمة" [٢٩]. إذاً فإرسال الطير كان واضحاً ولم يشك فيه أحد، ولذلك نجد هذا الترابط بين وضوح الحدث وظهوره أمام أعينهم وظهور التنوين في نص الآية.

٥- يقول الله تعالى: ﴿**فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى**﴾ (الليل: ٥ – ٧)

الإظهار في قوله "من أعطى" صوت النون الساكنة عند الهمزة، والهمزة من حروف الإظهار.

يقول المفسرون في معنى هذه الآيات: أنّ المقصود بها هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه حين اشترى ستة نفر من المؤمنين كانوا في أيدي أهل مكة يعذبونهم في النار[٣٠]. وقيل معناها: "أعطى حق الله واتقى محارم الله التي نهى عنها"[٣١]، وقيل: "المراد إنفاق المال في جميع وجوه الخير، ويتناول إعطاء حقوق المال وإعطاء حقوق النفس في طاعة الله، واتقى، فهو إشارة إلى الاحتراز عن كل ما لا ينبغي"[٣٢].

إذاً فسعي الناس في هذه الحياة مختلف، فمنهم من يظهر التزامه بما أمر الله به من إنفاق وتقوى وتصديق، وذلك كأبي بكر الصديق رضي الله عنه، ومنهم غير ذلك كأبي جهل. فهذا الصنف الأول من الناس، صنف ظهر إعطاؤه وبانت تقواه وعُلِم تصديقه؛ فهو إذاً سائر على صراط الله الواضح البين، فالمعنى إذاً ظاهر بيّنٌ في هذه الآيات، وأعتقد أنّ هذا الوضوح في المعنى تناسب مع الإظهار في الصوت. ولذلك نجد المسألة تنسحب معنا في كثير من النصوص، فهذا الصنف الذي أظهر استسلامه لله، هو ذلك الصنف الذي أظهر خوفه من ربه ﴿**وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ**﴾ (النازعات: ٤٠)، هؤلاء سيظهر الله فوزهم يوم الحساب ﴿**فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ**﴾ (الحاقة: ١٩) هؤلاء يريدون أن

يظهروا لكل مَنْ هو موجود في أرض المحشر فوزهم وفلاحهم؛ فهم ينادون بأعلى صوت ﴿**هَاؤُمُ اقْرَؤوا كِتَابِيَهْ**﴾ (الحاقة: ١٩) هؤلاء ﴿**فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ**﴾ (التين: ٦) فهم ﴿**فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ**﴾ (الحاقة: ٢٢– ٢٣)، ﴿**ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ**﴾ (البينة: ٨). كل هذه المواضع يتناسب فيها حكم الإظهار الوارد في الآية مع المعنى الظاهر البين فيها، والله أعلى وأعلم.

وهكذا تأمل في كل المواضع المشابهة في القرآن الكريم، فقد دللتك على المنهج فانحُ نحوه، ولعلّ في ذلك مقنع فهي إشارات وتلويحات وللمستزيد البحث والتنقيب.

المطلب الثاني: الشكل الإدغامي:

الإدغام في اللغة: إدخال شيء في شيء، وفي الاصطلاح: إدخال حرف في حرف بحيث يصيران حرفاً واحداً مشدداً كالثاني. وقيل هو: أن تصل حرفاً ساكناً بحرف متحرك من غير أن تفصل بينهما بحركة أو وقف، فيصيران لشدة اتصالهما كحرف واحد يرتفع اللسان عنهما رفعة واحدة شديدة. وينقسم الإدغام صوتياً إلى قسمين:

القسم الأول: ويسمى الإدغام الكامل، وهو أن تذهب ذات الحرف المدغم وصفته، وحروفه "النون والميم والراء واللام".

القسم الثاني: ويسمى الإدغام الناقص وهو أن تذهب ذات الحرف المدغم وتبقى صفته، وحرفاه الواو والياء وعلة الإدغام هو التماثل في النون والتقارب مع باقي الحروف، وعلة الإدغام مع بقاء الغنة أنها صفة قوية [٣٣].

إيحاءات الإدغام:

يذكر الله سبحانه وتعالى قضية خلق الإنسان وأنه: ﴿**خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ**﴾ (الطارق: ٦)

وأشباه هذه الآية كثير كقوله تعالى في سورة النحل: ﴿**خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ**﴾ (النحل: ٤).

وفي سورة المرسلات: ﴿**أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ**﴾ (المرسلات: ٢٠).

وفي سورة يس: ﴿**أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ**﴾ (يس: ٢٧).

الإدغام في صوت النون الساكنة مع الميم في "من ماء" أو مع صوت النون في "من نطفة"، كنا في الشكل الإظهاري قد تحدثنا عن سر مجيء طور العلق في آيات السورة التي سميت باسم الطور نفسه وهي سورة العلق، وهنا سنحاول أنْ نبين سرَّ مجيء طور الماء الدافق، وطور النطفة الذي يحمل صورة الإدغام، وهل لهذا الإدغام دلالة تنعكس على المعنى. للمفسرين في هذه الآية وغيرها من الآيات المشابهة لها تشابه في التأويل فالنطفة عندهم هي الماء، والماء هو النطفة، والجميع هو المني.

وإذا بحثنا عن ماهية النطفة وجدنا أنها القليل من الماء، سمي بها ماء التناسل[٣٤]، فالنطفة إذاً داخلة في الماء لأنها جزء منه والجزء يدخل في الكل، كما أن هذا الماء الدافق لا يكون منه الإنسان إلا إذا أدخل في الرحم، وليس من كل الماء يكون الإنسان وإنما من حيوان منوي واحد (نطفة) من بين آلاف بل ملايين الحيوانات المنوية التي تتدفق، فقد كشفت العلوم الحديثة أنه عند الجماع يفرز الرجل أكثر من٥٠٠ مليون حيوان منوي صغير الحجم، للحيوان رأس مفلطح وذيل طويل وتتم حركته بواسطة قوة اندفاع ولولبة ذيله، ومتى وصلت إلى مهبل الأنثى قابلت بويضة المرأة، فيندمج بها حيوان واحد فقط وتموت البقية[٣٥].

إذاً فهذا الحيوان الذكي يدخل في البويضة ثم يمتزجان، قال البقاعي: "ولم يقل ماءين إشارة إلى أنهما يجتمعان في الرحم، ويمتزجان أشد امتزاج بحيث يصيران ماء واحداً"[٣٦]، وبمثله قال الزمخشري في كشافه، والشوكاني في الفتح.

فهذه المعاني وغيرها أجد لها نوعاً من ارتباط بالإدغام الصوتي الحادث في صوت النون عند الميم أو عند النون، وعندي مزيد تأمل في معنى الإدغام الكامل، وقول البقاعي السابق " يمتزجان أشد امتزاج " وهو أن الامتزاج الكامل

يكون بدخول الحيوان المنوي للذكر في بويضة الأنثى حتى يصيران خلية واحدة، وهكذا ناسب الامتزاج الكامل الإدغام الكامل الموجود في الآية فتأمله تجده كما ذكرت لك .

٢- أمر الله سبحانه وتعالى نبيه الكريم بتذكير قومه، فقال: ﴿**فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى**﴾ (الأعلى: ٩- ١٠).

الإدغام في صوت النون الساكنة مع النون في "إن نفعت"، وفي صوت النون الساكنة عند الياء في "من يخشى". فهل لهذا الإدغام إيحاءاته على المعنى ؟!اختلف المفسرون في معنى قوله تعالى "إن نفعت الذكرى"، فقال الفراء والزهراوي معناه: "وإن لم تنفع. فاقتصر على القسم الواحد لدلالته على الثاني". وقال بعض الحذاق: إنما قوله "إن نفعت الذكرى" اعتراض بين الكلامين على جهة التوبيخ لقريش، أي إن نفعت الذكرى في هؤلاء العتاة الطغاة[٣٧].

وقد جعل بعض المفسرين الشرط في قوله "إن نفعت الذكرى" تقييداً لمضمون الجملة، يقول ابن عجيبة: "أي دُمْ على تذكيرك، وتقييد التذكير لما أنّ رسول الله ﷺ طالما كان يذكرهم ويستفرغ جهده في وعظهم حرصاً على إيمانهم، فما كان يزيد ذلك بعضهم إلا نفوراً، فأمر عليه السلام أنْ يخص الذكر بمظان النفع في الجملة، بأن يكون من يذكره ممن يرجى منه التذكر، ولا يتعب نفسه في تذكير من لا ينفعه ولا يزيد النفع في الجملة، بأن يكون من يذكره ممن يرجى منه التذكير، ولا يتعب نفسه في تذكير من لا ينفعه ولا يزيده إلا عتواً ونفوراً، فهو كقوله " فذكر بالقرآن من يخاف وعيد "وقوله" فأعرض عن من تولى"[٣٨].

لكننا نلمح أن في الآية سراً له علاقة بمجيء الشرط بحرف "إنْ" دون غيرها من أدوات الشرط الأخرى. وذلك لأن أصل الشرط بـ "إنْ" أنْ يكون غير مقطوع بوقوعه، إذاً فالشرط مستعمل في التشكيك وفيه تعريض بأنّ الذكرى لن تنفعهم جميعهم، واستخدام أداة الشك إفهاماً للإطلاق الكلي كما يقول البقاعي [٣٩].

إذاً فلا وجه لتقييد التذكير بما إذا كانت الذكرى نافعة إذ لا سبيل إلى تعرُّف مظان النفع، وإنما المراد تذكير الناس كافة إن كانت الذكرى تنفعهم جميعهم، أي وهي لا تنفع إلا البعض ففي القوم من لا تنفعه الذكرى، وذلك يفهم من استخدام حرف الشك "إنْ"، وجيء بقوله "سيذكر من يخشى" بعدها. إذاً فالداخلون في الانتفاع من الذكرى ليس الجميع، وإنما البعض فأدخلوا في حكم المنتفعين.

أما قوله: ﴿من يخشى﴾ أي الذين يخشون، قال ابن عاشور: "وقد نزل فعل (يخشى) منزلة اللازم فلم يقدر له مفعول أي يتذكر من تكون الخشية فكرته وجبلته"[٤٠] وقال البقاعي: "من يخشى أي في جبلته نوع خشية"[٤١].

إذاً "من يخشى" من تكون الخشية قد دخلت إلى قلبه، وأصبحت جزءاً منه ومن فكرته وجبلته، والخشية: الخوف وهي لا تكون إلا في الإقلاب، وتنعكس آثارها على الجوارح. فقد تداخلا واندمجا كتداخل التاء مع الذال وإدغامها حتى صارا حرفاً واحداً في "سيذكر" وهو ما يزيد المعنى قوة، ولعلك الآن تدرك قيمة هذه الإدغامات المتكررة وإيحاءاتها، وكذلك هو الحال في قوله تعالى: ﴿**فذكر بالقرآن من يخاف وعيد**﴾ (ق: ٤٥).

٣- قول قوم نوح لنوح عليه السلام: ﴿**قَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ**﴾ (الأعراف: ٦٠).

الإدغام في موضع واحد: التنوين بعده ميم في "ضلال مبين".

ومعنى الآية: أنهم أدخلوا نوحاً عليه السلام في الضلال، وأن هذا الضلال متمكن منه، وزاد حرف "في" الذي يفيد الظرفية والمعنى إحاطة. يقول ابن عاشور: (وظرفية "في ضلال" مجازية تعبيراً عن تمكن وصف الضلال منه حتى كأنه محيط به من جوانبه إحاطة الظرف بالمظروف)[٤٢]. فإدخال نوح في الضلال كإدخال الظرف في المظروف، وهل الإدغام إلا إدخال الشيء في الشيء.

٤- قول نوح عليه السلام في الرد على قومه: ﴿**يا قوم ليس بي ضلالة ولكني رسول من رب العالمين**﴾ (الأعراف: ٦١).

الإدغام في:

أ. تنوين بعده واو في "ضلالة ولكني".

ب. تنوين بعده ميم في "رسول من".

ج. نون ساكنة بعدها راء في "من رب".

معنى الآية: نفي الضلالة عن نفسه وإثبات أنّه رسول من رب العالمين، فهل هناك علاقة للإدغام؟

يقول النسفي: (الاستدراك لتأكيد نفي الضلالة فقال "ولكني رسول من رب العالمين" لأنّ كونه رسولاً من الله مبلغاً لرسالاته في معنى كونه على الصراط المستقيم، فكان الغاية القصوى من الهدى)[٤٣].

ألا ترى تداخل معنى الجملتين مع بعضهما لإفادة أنه رسول من الله؛ فكونه ليس به ضلالة فهو إذاً رسول؛ وكونه رسولاً إذا ليس به ضلال. فهذا تداخل في المعنى أحسبه يتناسب مع الإدغام الأول.

أما الإدغامان الآخران في "رسول من رب العالمين". فيقول ابن عاشور: (واختيار طريق الإضافة في تعريف المرسل، لما تؤذن به من تفخيم المضاف ومن وجوب طاعته على جميع الناس؛ تعريضاً بقومه إذ عصوه)[٤٤]. فهذا الإدغام أدخل طاعة الرسول في طاعة الله؛ لأنّ من أطاع الرسول فقد أطاع الله، ومن يعص الرسول فقد عصى الله. ومثلها قول هود عليه السلام في الرد على قومه: ﴿**قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ (الأعراف: ٦٧). هذه الإدغامات المتتالية تدخل أجزاء الآية بعضها في بعض؛ لتحدث نوعاً من تداخل المعنى، وكأنّ المعنى ليس بي سفاهة لأنّي رسول، ولأنّي رسول فأنا مرسل من رب العالمين، أو أنا مرسل من رب العالمين فأنا رسوله هو؛ ولأني رسوله فأنا على هدى، ولأنّي على هدى فليس بي ضلالة.

هذا وإن استقصاء القول في هذا الضرب والبحث عن أسراره صعب وعزّ مع كثرة الأمثلة والشواهد، وقد آثرنا الدلالة على الطريق لمن أراد أن يقتفي ؛ ولذلك اقتصرنا على القدر المذكور.

المطلب الثالث: الشكل الإخفائي:

الإخفاء في اللغة العربية هو: الستر. وفي الاصطلاح هو: النطق بالنون الساكنة أو التنوين بحال بين الإظهار والإدغام عارية عن التشديد مع بقاء الغنة بمقدار حركتين. وحروف الإخفاء هي الحروف الباقية بعد حروف الإظهار الستة، وحروف الإدغام الستة، وحرف الإقلاب الواحد. وهي خمسة عشر حرفاً مجموعة في أوائل كلمات هذا البيت:

صف ذا ثنا كم جاد شخص قد سما دم طيباً زد في تقى ضع ظالماً

وعلة الإخفاء هي أنّ مخرج النون الساكنة والتنوين لم يبعد عن مخرج حروف الإخفاء مثل حروف الإظهار ولم يقرب منها مثل حروف الإدغام، فلما انعدم البعد المسوغ للإظهار وانعدم القرب المسوغ للإدغام أعطى حكماً وسطاً بين الإدغام والإظهار وهو الإخفاء[٤٥].

إيحاءات الإخفاء:

١- سبق أن ذكرنا امتنان الله سبحانه وتعالى على قريش بأنه ﴿**وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ**﴾ وذلك عند حديثنا عن الشكل الإظهاري، وقبل ذلك امتن عليهم في نفس الآية بأنه ﴿**الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ**﴾ (قريش: ٣).

والتنوع الصوتي هنا غيره هناك فصوت النون الساكنة يخفى عند الجيم في "من جوع" فهل لهذا التنوع إيحاء وظلال يلقيها على المعنى؟ لمعرفة الإيحاء نحتاج لمعرفة الإجابة عن كيف أطعمهم من جوع؟ ثم معرفة معنى من ؟ ولماذا جاءت "جوع" نكرة لا معرفة حتى لا يكون هناك إخفاء؟ للإجابة عن السؤال الأول: قيل أطعمهم من جوع شديد

كانوا فيه، وقيل أريد به القحط الذي أكلوا فيه الجيف والعظام، وقيل: أطعمهم بدعوة إبراهيم عليه السلام، وقيل: أطعمهم بأن جعل الخلافة لا تكون إلا فيهم. وقيل: بأن ساق إليهم الطعام إلى مكة، وقيل: بالرحلتين وقيل كثير من الآراء المتداخلة مما يدل على أنّ كيفية إطعامه سبحانه وتعالى لهم أمر مستور غير معروف فهو خفي. وللرازي كلام جميل يزيد الأمر وضوحاً في تفسيره لهذه الآية وقد أطال وأجاد فليُرجع إليه [٤٦].

ثم إذا نظرنا من جميع الجوانب نجد في المسألة نوعاً من خفاء، فقريش كانوا في بلد لا زرع به ولا ضرع فهم عرضة للفقر الذي ينشأ عنه الجوع فكفاهم ذلك وحده. وكذلك الجوع الذي كانت فيه قريش أيام هاشم كان خفياً عن ذلك الجيل من قريش أيام رسول الله ﷺ فهم لم يعيشوه، فهو شيء مستور عنهم، ولذلك جعلها الرازي تذكيراً لهم بحالتهم الأولى المؤلمة التي جهلوها.

أما بالنسبة للسؤال الثاني وهو معرفة معنى "من" فابن حيان يرى أنها للتعليل: أي لأجل الجوع[٤٧]، وجعلها ابن عاشور بدلية: أي أطعمهم بدلاً من الجوع، ومعنى البدلية عنده هو أن حالة بلادهم تقتضي أن يكون أهلها في جوع، فإطعامهم بدل من الجوع الذي تقتضيه البلاد[٤٨].

أما لماذا تنكير جوع؟ فلقد أجاب الرازي بقوله: "المراد من التنكير التعظيم"[٤٩]. وخالفه في ذلك ابن عاشور فجعلها للنوعية فقال: "وتنكير جوع وخوف للنوعية لا للتعظيم إذ لم يحل بهم جوع وخوف من قبل"[٥٠]. إذاً فالقضية فيها خفاء والأمر مستور ولعل إيحاء الإخفاء يلوح فندرك منه طبيعة العلاقة بين هذا الشكل من التنوعات الصوتية والمعنى الوارد في الآية.

٢- كنا قد تحدثنا في الشكل الإظهاري عن صنف من الناس ظهرت خفة موازينه، والصنف الثاني الذي ذكره الله سبحانه وتعالى هو من ثقلت موازينه، قال تعالى: **﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾** (القارعة: ٦- ٧).

التنوع هنا في الإخفاء في صوت النون الساكنة عند الثاء، والثاء من حروف الإخفاء فلماذا أظهر مع الصنف الأول وأخفى مع الصنف الثاني؟ أمصادفة أم عبثاً؟ حاشاه؛ إذاً فلا بدّ من سر لذلك، الإظهار تحدثنا عنه وبقي الإخفاء. إنّ المؤمن يجهد نفسه في طاعة الله وإظهار خوفه وخشيته منه ويجتهد في عمل الصالحات، ومع ذلك فإنّ كل هذه الأعمال تختفي أمام نعمة واحدة من نعم الله التي أنعمها على عبده.

هذا أمر والأمر الآخر أنّ ميزان العبد يوم القيامة لا يثقل بالأعمال وإنما يثقل بشيء آخر لا يدري العبد هل سيدركه ذلك الشيء أو لا، هذا الشيء هو رحمة الله "قالوا حتى أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته"[٥١]. فما الذي يثقل ميزان العبد يوم القيامة من الأعمال؟ لا ندري ما العمل الذي تقبله الله منّا فيكون سبباً في تثقيله موازيننا، ولا ندري كيف يثقل هذا الميزان؟! فهي أمور نجهلها لأنّها خفية عنا، ولذلك فالإخفاء هنا له إيحاء وظلال تجعل الإنسان يعيش بين خوف ورجاء.

٣- من الأمور المترتبة بالقضية السابقة الحديث عن الفلاح والخيبة فالله عز وجل يقول: **﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا، وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾** (الشمس: ٩- ١٠).

تنوع إخفائي في صوت النون الساكنة عند الزاي "من زكّاها" وعند الدال في " من دساها". فما الذي يوحي به هذا الإخفاء؟ وهل سيكون هناك تعارض بين النص والنصوص الأخرى الواردة فيها الإظهار وهي قريبة المعنى؟

أولاً: نحتاج لمعرفة معنى التزكية المقصود في هذه الآية، وفي الآية الأخرى المشابهة لها وهي قوله تعالى **﴿قد أفلح من تزكى﴾**.

وهنا نشير إلى أن المفسرين اختلفوا في معنى التزكية، فقيل تزكى من الشرك، وقيل: كان عمله زاكياً، وقيل: عمل ورعاً، وقيل: قال لا إله إلا الله، وقيل: قد أفلح من أدّى زكاة ماله. وقيل: من رضخ من ماله، وقيل بل عنى بذلك زكاة

الفطر، وقال بعضهم لا أدري ما وجه هذا التأويل، وقال الرازي: "أنه تعالى لما لم يذكر في الآية ما يجب التزكي عنه علّمنا أنّ المراد هو التزكي عمّا مرّ ذكره قبل الآية"(٥٢). هذا تأويله رحمه الله فالأمر خفي مستور.

ووجه آخر يظهر لي فيه خفاء، وهو عود الضمير على "مَنْ"، قال ابن عطية: "والفاعل بزكى يحتمل أنْ يكون الله تعالى... ويحتمل أنْ يكون الفاعل الإنسان"(٥٣). فمن يزكيها ومن يدسيها مسألة فيها خفاء، ولذلك اختلف النحاة في التقدير(٥٤).

ثم إن دساها مأخوذ من التدسية وهي النقص والإخفاء، قال ابن عاشور: "وأصل فعل دسّى: دس، إذا أدخل شيئاً تحت شيء فأخفاه"(٥٥). وفي تفسير حقي لهذه الآية كلام جميل ودليل آخر على ما ذهبنا إليه من العلاقة بين التنوع الإخفائي والمعنى فيقول: "بخلاف أهل الفسق فإنهم يخفون أنفسهم ويدسونها في المواضع الخفية لا يلوح عليهم سيما سعادة يشتهرون به بين عباد الله المقربين، وأصل هذا أنّ أجواد العرب كانوا ينزلون في أرفع المواضع، ويوقدون النار للطارقين لتكون أشهر، واللئام ينزلون الأطراف والهضاب لتخفى أماكنهم عن الطالبين فاخفوا أنفسهم"(٥٦).

إذاً فقد تضافرت الأدلة والأقوال على خفاء حسي ومعنوي في معنى الآية، وهذا مما يزيدنا ثقة إلى أنّ هناك علاقة مابين التنوع الصوتي والمعنى تمثل في هذه العلاقات بين الإخفاء الصوتي والخفاء في المعنى وفي دلالة الكلمة والله أعلى و أعلم.

٤- قول نوح عليه السلام لقومه: **﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ﴾** (الأعراف: ٦٣).

الإخفاء في ثلاثة مواضع:

أ. نون ساكنة بعدها جيم في "أنْ جاءكم".

ب. نون ساكنة بعدها كاف في "منكم".

ج. نون ساكنة بعدها ذال في "لينذركم".

معنى الآية: يذكر نوح عليه السلام الأمور التي يتعجب منها قومه وينكرونها؛ وهي مجيء ذكر من الله، ثم أن يأتي هذا الذكر على رجل منهم، ثم إنذار هذا الرجل لهم.

يقول الفخر الرازي: (أنهم استبعدوا أن يكون لله رسول إلى خلقه؛ لأجل أنهم اعتقدوا أن المقصود من الإرسال هو التكليف. والتكليف لا منفعة فيه للمعبود لكونه متعالياً عن النفع والضرر، ولا منفعة فيه للعابد. ثم وإنْ جوزوا التكليف إلّا أنّهم قالوا: ما عُلِم حسنه بالعقل فعلناه وما عُلِم قبحه تركناه، ولما كان رسول العقل كافياً فلا حاجة إلى بعثه رسولاً آخر. ثم إذا كان لا بدّ من الرسول فإنّ إرسال الملائكة أولى؛ لأنّ مهابتهم أشد وطهارتهم أكمل، فهذه الوجوه التي لأجلها أنكر الكفار رسالة رجل معين)(٥٧). ألا ترى أنّ الإخفاء جاء في المعاني التي خفت على القوم، فعِلّة مجيء الذكر من الله خافية عليهم، ثمّ عِلّة أنْ يأتي هذا الذكر على رجل منهم خافية عليهم أيضاً، ثم عِلّة إنذاره لهم خافية عنهم كذلك. فتأمّل ذلك تجده كما ذكرت.

ومثلها قول هود عليه السلام لقومه(٥٨).

٥- قول شعيب عليه السلام محذراً قومه: **﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾** (هود: ٨٩).

الإخفاء في موضعين: أ. نون ساكنة بعدها كاف في "منكم".

ب. ميم ساكنة بعدها باء في "منكم ببعيد".

يقول المفسرون في معنى الآية: إنّ شعيباً عليه السلام أراد تذكير قومه بما حدث لقوم لوط الذين كانوا قريبين منهم، لكنّه لم يحدد وجه القرب. هل هو قرب مكاني أو زماني أو عملي (٥٩).

أي أنّ وجه التقارب خفي، فلا ندري هل القرب المقصود هو قرب مكانهم منهم، أو قرب زمانهم، أو قرب أعمالهم من بعضهم من حيث كفرهم بالله والتعدي على حقوق الناس وأعراضهم.

ثم لعل هنالك معنىً آخر من خلال النظر في الآية حيث نجد أنّ شعيباً عليه السلام ذكر قوم نوح وقوم هود وقوم صالح في قوله: ﴿**وَيَا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ**﴾ (هود: ٨٩). وهنا مواطن إظهار في جميعها، فلما وصل إلى قوم لوط جاء الإخفاء ﴿**وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ**﴾.

وعلة ذلك – فيما أعتقد – هو ظهور آثار ما حل بقوم نوح وقوم هود وقوم صالح، بينما اختفت آثار قوم لوط؛ لأننا نعلم أنّ الله جعل عليهم الأرض عاليها سافلها، أي أخفاهم وأخفى آثارهم من على وجه الأرض، والله أعلم.

المطلب الرابع: الشكل الإقلابي:

الإقلاب في اللغة هو التحويل، أي تحويل الشيء عن وجهه. وفي الاصطلاح: إبدال النون الساكنة أو التنوين ميماً مخفاة مع الغنّة عند حرف الباء. وعلة الإقلاب أنّه لمّا لم يحسن الإظهار بسبب العسرة والكلفة في النطق بالنون الساكنة مظهرة ثم الإثبات بالباء، ولما لم يوجد سبب للإدغام لبعد المخرجين، حسن الإخفاء، وليتم التوصل إليه تم قلب النون الساكنة والتنوين مع الغنة [٦٠]. والظاهر أنّ هذا التعليل عليلٌ لأنّ مخرجي النون والباء ليسا بعيدين.

إيحاءات الإقلاب:

١- في الشكل الإظهاري ذكرنا ذلك الصنف من الناس الذي أظهر تقواه لله وتصديقه بالحسنى والصنف الثاني من الناس هم على العكس من ذلك فقد انقلبت عندهم الأمور وتحولت عن وجهتها الصحيحة، فقال الله عنهم: ﴿**وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى**﴾ (الليل: ٨- ٩).

الآية فيها تنوع صوتي هو قلب النون الساكنة ميماً عند الباء في "من بخل" والباء هو حرف الإقلاب الوحيد. فهل لهذا التنوع إيحاؤه؟

يقول المفسرون في تفسير هذه الآية: "وأمّا مَنْ بخل بالنفقة في سبيل الله ومنع ما وهب الله له من فضله من صرفه في الوجوه التي أمر الله بصرفه فيها، واستغنى عن ربه فلم يرغب إليه بالعمل له بطاعته بالزيادة فيما خوله من ذلك"[٦١]، وقال أبو حيان: " قابل أعطى ببخل، واتقى باستغنى لأنّه زهد فيما عند الله"[٦٢].

إذاً فهذا الصنف من البشر حول الأمور عن مجراها فبدلاً من الطاعة تحول إلى المعصية وبدل الإعطاء البخل، وتحول الاتقاء عنده إلى استغناء. إذاً فهو الإقلاب والتحويل أفلا يتناسب هذا مع الإقلاب الموجود في الآية؟ أعتقد أنّ هناك نوعاً من التناسب.

يتحدث الله سبحانه وتعالى عن مصير ذلك الذي بخل واستغنى وجمع المال وعدّده يحسب أنّ ماله أخلده فيقول: ﴿**كَلا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ**﴾ (الهمزة: ٤).

وفيها قلب النون الساكنة ميماً عند الباء في " لينبذنّ " فما الذي يومىء به هذا الإقلاب؟ لقد كان المرء يحسب أنّ ماله الذي جمعه وأحصاه، وبخل بإنفاقه سوف يخلده في هذه الدنيا، لكنّ الأمر في حقيقته ليس كما زعم ولا كما حسب.

إنّ ما كان يعتقده سوف ينقلب ويتحول، وتصبح العزة والكبر مذلة ومهانة، ولذلك جاء الإقلاب في "لينبذن" وقد كان بالإمكان مجيء ألفاظ أخرى تفي بالغرض كيلقى أو يقذف أو يطرح أو يُرمى أو غيرها من الألفاظ التي لها علاقات استبدالية بينبذ لكنّها لنْ تحمل نفس الإيحاء الذي تحمله لفظة "يُنبذ" بما فيها من إقلاب، ولله درّ الرازي حين قال: "فإنما ذكره بلفظ النبذ الدال على الإهانة؛ لأنّ الكافر كان يعتقد أنه من أهل الكرامة"[٦٣].

ومن الآيات التي تحمل نفس الإيحاء لنفس السبب قوله تعالى: ﴿**كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعَنْ بِالنَّاصِيَةِ**﴾ (العلق: ١٥).

الإقلاب في النون الساكنة عند الباء في "لنسفعنْ بالنّاصية".

والآية كما ذكر المفسرون نزلت في أبي جهل تردعه عن تجبره وغطرسته على النبي ﷺ، فقد كان يهدد بأنه سيطأ عنقَ الرسول صلى الله عليه وسلم إنْ هو رآه يسجد لله أمام الكعبة. وأبو جهل هو من هو في قومه زعامة وجاهاً ومكانة. فجاءت الآية توعده بدل العزة مهانة وإذلالا. ولذلك جاء بلفظ السفع، وفي قوله "لنسفعنْ" وجوه متعددة، قال الرازي في قوله "لنسفعن" وجوه: أحدها: لنأخذنْ بناصيته ولنسحبنّه بها إلى النار، والسفع: القبض على الشيء وجذبه بشده، وثانيها: السفع: الضرب أي لنلطمن وجهه، وثالثها: لنسودنّ وجهه... وبالجملة فتسويد الوجه علامة الإذلال والإهانة، ورابعها: لنسمنّه، وخامسها: لنذلنّه"[٦٤]. وكل الوجوه التي ذكرها الرازي فيها إذلال ومهانة لتلك الناصية "ناصية أبي جهل"، قال الألوسي: "وكأنّ تخصيص الناصية بالذكر لأنّ اللعين كان شديد الاهتمام بترجيلها وتطييبها"[٦٥].

إذاً فالأمر فيه قلب لهذه الحالة من اهتمام وعناية وتكبر إلى إذلال ومهانة، قال ابن عاشور: "وفيه إذلال لأنّهم كانوا لا يقبضون على شعر رأس أحدٍ إلا لضربه أو لجرّه" [٦٦].وقال الألوسي: "والسفع بها غاية الإذلال عند العرب إذ لا يكون إلا مع مزيد التمكن والاستيلاء، ولأنّ عادتهم ذلك في البهائم"[٦٧]، بقي أمر هو أنّه كان بالإمكان أنْ يقول "لنسفعنْ الناصية"، وحينها لن يكون هناك إقلاب ويذهب ما نراه من علاقة. لكن هل سيبقى المعنى على ما هو عليه إذ ما جاء النص بدون الباء التي هي سبب الإقلاب. لا شك في أنّ المعنى سيتغير، وذلك بيّن لكل من له حظ في العربية، ولذلك جاء بالباء في "الناصية"، قال ابن عاشور: "وأكد ذلك السفع بالباء المزيدة الداخلة على المفعول لتأكيد اللصوق"[٦٨]. ونحن نقول أنها أفادت أكثر من اللصوق، فتأمل ذلك.

٢- ولمناسبة ذكر الناصية يذكر الله سبحانه وتعالى أنّه: ﴿**مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**﴾ (هود: ٥٦).

الإقلاب في صوت التنوين عند الباء في "آخذٌ بناصيتها".

يقول سيد قطب في تفسيره لهذه الآية: "وهي صورة محسوسة للقهر والقدرة، تصور القدرة آخذة بناصية كلّ دابة على هذه الأرض، بما فيها الدواب من الناس. والناصية أعلى الجبهة، فهو القهر والغلبة والهيمنة، في صورة حسيّة تناسب الموقف وتناسب غلظة القوم وشدّتهم، وتناسب صلابة أجسامهم وبنيتهم، وتناسب غلظ حسهم ومشاعرهم"[٦٩] تناسبها من حيث أنّ هذه الغلظة والشدّة والصلابة سوف يقلب حالها فتقهر وتغلب.

لقد كان هؤلاء القوم يتصورون أنهم مالكو أمرهم، وأنهم بلغوا الغاية في الشدة والقوة، فقالوا: "من أشدّ منا قوة"[٧٠]. هكذا يحاولون إظهار قوتهم وسيطرتهم وتجبرهم وغطرستهم؛ لكنّ الله عز وجل يحولهم إلى حقيقة ما هم عليه، تحويل للأمر من الوهم إلى الحقيقة، وهي أنّ الله مالك أمرهم، وقاهرهم، يقول الإمام البقاعي: "إلا هو آخذ، أي أخذ قهر وغلبة "بناصيتها" أي قادر عليها، وقد صار الأخذ بالناصية عرفاً في القدرة، لأنّ الكل جارون مع مراده لا مع مرادهم بل لا ينفك أحد عن كراهة لبعض ما هو فيه، فدلّ ذلك قطعاً على أنّه بغير مراده وإنّما هو بمراده قاهر قهره على ذلك وهو الملك الأعلى سبحانه. ومن أخذ بناصيته فقد انقاد لآخذه لا يستطيع ميلاً"[٧١].

إذاً فالأخذ بالناصية تحويل للكبر والتجبر الذي هم فيه إلى ذل وخضوع، لأنّ ذلك من عادة العرب إذا وصفوا إنساناً بالذلّ والخضوع. قال الرازي: "واعلم أنّ العرب إذا وصفوا إنساناً بالذل والخضوع قالوا: ما ناصية فلان إلا بيدي فلان، أي أنه مطيع له، لأنّ كلّ من أخذتَ بناصيته فقد قهرتَهُ، وكانوا إذا أسروا الأسير فأرادوا إطلاقه والمنّ جزوا ناصيته ليكون ذلك علامة لقهره"[٧٢].

٣- يذكر الله سبحانه وتعالى موقف قوم نوح من نبيهم عليه السلام بأنّهم وصفوه بالجنون فقالوا: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ﴾ (المؤمنون: ٢٥).

الإقلاب في صوت التنوين عند صوت الباء في "رجلٌ به".

قال الرازي: "الجِنَّة: الجنون أو الجنّ فإن جُهّال العوام يقولون في الجنون: زال عقله بعمل الجن، وهذه الشبهة من باب الترويج على العوام، فإنه عليه السلام كان يفعل أفعالا على خلاف عاداتهم، فأولئك الرؤساء كانوا يقولون للعوام إنّه مجنون"(٧٣).

إذاً فالقوم يتهمون نوحاً عليه السلام بالجنون، لأنّهم يرون منه ويسمعون ما يظنون أنّه خارج نطاق العقل، فهو في ظنّهم يحول الأمور عما هي عليه ولا يدري ما يقول.

فهل يا ترى كان نوح عليه السلام مجنوناً كما زعموا. حاشاه ولكنه قلب للحقائق وتحويل للأمر عن وجهه، فهم يعلمون أنّه ليس بمجنون. قال الزمخشري: "ألا تراهم كيف جنّنوه وقد علموا أنّه أرجح الناس عقلاً وأوزنهم قولاً"(٧٤).

فهم يعلمون أنّه راجح العقل صادق القول ولكنهم حولوا الأمر إلى الجنون حتى لا يعترفوا برسالته، قال ابن عاشور: "وقصروه على صفة المجنون وهو قصر إضافي أي ليس برسول من الله"(٧٥). فمسألة الإقلاب والتحويل واضحة تتناسب مع الإقلاب الصوتي في الآية، وهذا ممّا يزيد ما ذهبنا إليه تأكيداً.

الخاتمة:

إنّ الشواهد وغيرها كثيرٌ ممّا يطول تدل على أنّ التنوع الصوتي في أحكام النون الساكنة والتنوين يلقي بظلاله على المعنى، وأنّ له إيحاءاته التي يمكن تلمسها من خلال هذه العلاقة بين شكل التنوع الصوتي والمعنى العام للنص، والموضع ممّا يسترسل فيه، ولكنّ الباب واحد والمسائل كثيرة، ولو التزمنا الاستكثار لطال البحث. وحسبنا إشارات وإرشادات لظاهرة صوتية يتميز بها القرآن الكريم على غيره من النصوص، نزعم أنّه باب جديد من أبواب الإعجاز الصوتي القرآني، لذلك نقدم التوصيات الآتية:

١- دعوة الباحثين في إعجاز القرآن للاستفادة من أقوال المفسرين في ربط أحكام التجويد بالمعنى المراد من الآيات.

٢- الاستفادة من العلاقات القائمة بين أحكام التجويد ودلالة الآيات في صياغة قواعد مطردة تخدم إعجاز القرآن الكريم من جهة وتطور من علم التجويد ليواكب الدرس الصوتي والدلالي الحديث من جهة أخرى.

٣- الاستفادة من نتائج الأبحاث في صياغة نظرية صوتية دلالية عربية خالصة.

ونسأل الله أنْ ينفع بهذا البحث قارئيه، فقد أردنا أنْ يفتحَ باباً جديداً للتأمل في آيات القرآن الكريم وظواهره، واستكناه مكنوناته، وإبراز وجوه إعجازه، فإن نجحنا في ذلك فلله الحمد في الأولى والآخرة، وإنْ كانت الأخرى فحسبنا المحاولة شرفاً، والله حسبنا ونعم الوكيل.

الهوامش:

(١) ابن تيمية: أحمد بن عبدالحليم، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، ت علي حسن وآخرون، ط، دار العاصمة، الرياض، ١٤١٤هـ، ص ٣٧٧، "بتصرف".

(٢) ابن كثير: أبو الفداء إسماعيل بن عمر، السيرة النبوية، ت صدقي العطار، ط١، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٧، ج١، ص٤٩٨. نقل الحافظ ابن حجر في إتحاف المهرة عمن وصف اسناد هذا الحديث بأنه على شرط البخاري، ج٧، ص٥٨٢، وسكت على هذا الكلام ولم يتعقبه. وهذا حديث مرسل كما أخرجه الطبري عن عكرمة، ج٢٩، ص١٥٦.

(٣) ابن هشام: أبو محمد عبد الملك: السيرة النبوية، ت طه سعد، ط١، دار الجيل بيروت، ١٩٩١م. ج١ ص٣١٥. وهذا حديث مرسل كما قال محمد بن علوي السقاف في تخريج حديث وآثار كتاب في ظلال القرآن ص١٤٢. طبع دار الهجرة، مصر، ط٢، ١٩٩٥م.

(٤) الفيروزآبادي: مجد الدين محمد بن يعقوب: بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، ت محمد على النجار، المكتبة العلمية، بيروت، د.ت.م، ج١، ص ٧٠.

(٥) الخطابي: أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم: إعجاز القرآن، ت محمد خلف الله، ط ٣، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٦م، ص٢١٥.

(٦) السيوطي: جلال الدين ، معترك الأقران في إعجاز القرآن، ت احمد شمس الدين، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٨ م، ج١ ص٢٤٢. نقلا عن شفاء القاضي عياض ٢٧٤/١.

(٧) سيد قطب: في ظلال القرآن، ط١٥، دار الشروق، القاهرة، ١٩٨٨ م، ج٧، ص٦٠٥.

(٨) الرافعي: مصطفى صادق: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ط ٩، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٧٣م ، ص٢١٣.

(٩) نفسه، ص٢١٥.

(١٠) يونس: محمد محمد، وصف اللغة العربية دلالياً، منشورات جامعة الفاتح، ليبيا، ١٩٩٣م، ص ٢١٣، ٢١٤ "بتصرف".

(١١) Adrin Akmajian And Others , Linguistics, p 517.

(١٢) Ben Crane And Others , An Introduction to Linguistics, p 249.

(١٣) Yuen Ren Chao , Language And Symobolic Systems , p 41.

(١٤) Jones , An Outline of English Phonetics, p 50.

(١٥) وصف اللغة العربية دلالياً – ص ٢٢٠.

(١٦) Ladefoged, A. Course In Phonetics , p 280.

(١٧) ابن جني: أبو الفتح عثمان، الخصائص، ت محمد النجار، ط١، المكتبة العلمية، القاهرة، ١٩٥٢م، ج ٢، ص ١٢٣.

(١٨) ابن الجزري: أبو الخير محمد، النشر في القراءات العشر، ت علي الضباع، دار الفكر، بيروت ، د.ت.ط

(١٩) الداني: أبو عمرو عثمان بن سعيد ، التجديد في الإتقان والتسديد في صنعة التجويد، ت أحمد الفيومي، ط١، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٩٩٣، ص ٢٣٥.

(٢٠) العطار: أبو العلاء الحسن بن أحمد الهمذاني، التمهيد في معرفة التجويد، ت غانم قدوري، ط ١، دار عمار، عمان، ٢٠٠٠م، ص١١٧.

(٢١) الألوسي: شهاب الدين، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار إحياء التراث، بيروت، د.ت.ط، ج٢ ص٢٣.

(٢٢) ابن عاشور: محمد الطاهر، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م، ج ١٦، ص ٣٢٦.

(٢٣) أبو حيان: محمد بن يوسف، البحر المحيط ، ط٢، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٣م، ج ١٠، ص٥٠٠.

(٢٤) الشنقيطي، محمد الأمين، أضواء البيان في إيضاح القران بالقران، دار الفكر، بيروت، سنة ١٩٩٥م، ج ٦، ص ٣٤٥.

(٢٥) النحاس: أبو جعفر أحمد بن محمد، إعراب القرآن، ت زهير زاهد، ط ٣، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٨ م، ج٢، ص ١٤٢.

(٢٦) ابن كثير: أبو الفداء إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، د.ت.ط. ج ٨، ص ٤٩٢.

(٢٧) القرطبي: أبو عبد الله محمد بن احمد، الجامع لأحكام القرآن، ت هاني الحاج وآخرون، المكتبة التوفيقية، القاهرة، د.ت. ط، ج١٠، ص ١٦.

(٢٨) الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير: جامع البيان في تفسير القرآن، دار الجيل، بيروت، د. ت. ط. ج ٢٤، ص ٦٢٤.

(٢٩) تفسير القرآن العظيم، ج ٨ ، ص ٤٨٣.
(٣٠) الشوكاني: محمد بن علي، فتح القدير، ت سعيد اللحام، المكتبة التجارية، مكة المكرمة، د.ت.ط، ج٥، ص٦٤٢.
(٣١) الطبري، جامع البيان، مصدر سابق، ج ٢٤، ص ٤٦٨.
(٣٢) الرازي: فخر الدين، التفسير الكبير و مفاتيح الغيب ، دار الفكر، بيروت ، د.ت.ط ، ج ١٧، ص ٥٨.
(٣٣) ابن الجزري: شمس الدين أبو الخير محمد، التمهيد في علم التجويد، ت علي حسين البواب، ط ١، مكتبة المعارف، الرياض، ١٩٨٥م، ص١٥٣.
(٣٤) التحرير والتنوير، ج ١٦، ص ٢٠٦.
(٣٥) الاشارات العلمية في الآيات الكونية في القرآن الكريم، محمد محمود إسماعيل، ص ١٣٠.
(٣٦) نظم الدرر، ج ٩، ص ٣٩٠.
(٣٧) ابن عطيه: أبو محمد عبد الحق بن غالب، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ت المجلس العلمي بفاس، ١٩٧٥م، ج ٧، ص ٢٥.
(٣٨) تفسير ابن عجيبة، ج ٧، ص ٥٣.
(٣٩) نظم الدرر، ج ٩، ص ٤٠١.
(٤٠) التحرير والتنوير، ج ١٦، ص ٢٢١.
(٤١) نظم الدرر، ج ٩، ص ٤٠٢.
(٤٢) التحرير والتنوير، ج٥، ص١٩٣.
(٤٣) مدارك التنزيل وحقائق التأويل، ج١، ص٥٤٦.
(٤٤) التحرير والتنوير، ص٥، ص١٩٣.
(٤٥) مراد: عثمان سليمان، الوافي في شرح السلسبيل الشافي في علم التجويد، ت محمد خالد منصور، ط ١، دار عمار، عمان، ٢٠٠٢م، ص ١٠.
(٤٦) مفاتيح الغيب، ج ١٧، ص ٢٢٤.
(٤٧) البحر المحيط ، ج٨، ص٥١٦ .
(٤٨) التحرير والتنوير، ج ١٦، ص٣٩٥.
(٤٩) مفاتيح الغيب، ج ١٧، ص٢٢٥.
(٥٠) التحرير والتنوير، ج ١٦، ص ٣٩٦.
(٥١) مسند الإمام أحمد، ج ١٩، ص ٤٩٨.
(٥٢) مفاتيح الغيب، ج١٧، ص ٤٨.
(٥٣) المحرر الوجيز، ج٧، ص ٣٧.
(٥٤) الزمخشري: جار الله محمود بن عمر، الكشاف، دار الفكر، بيروت، د. ت.ط، ح ٧، ص ٢٩٥.
(٥٥) التحرير والتنوير، ح١٦، ص٢٨٣.
(٥٦) تفسير حقي، ح ١٧، ص ٢٨٠.
(٥٧) مفاتيح الغيب، ج٧، ص ١٥٨.
(٥٨) سورة الأعراف: آية ٦٩.
(٥٩) انظر: فتح القدير، ج٢، ص٧٥١، الكشاف، ج٢، ص٢٣١، التحرير والتنوير، ج٨، ص١٢٤.
(٦٠) القاضي: عبد الحق عبد الدائم، العقد الفريد في علم التجويد، ط ١، مكتبة الجيل الجديد، صنعاء، ١٩٩٤م، ص٢٤.
(٦١) جامع البيان، ج ١٢، ص ٦١٤.

(٦٢) البحر المحيط، ج ١٠، ص ٤٩١.
(٦٣) مفاتيح الغيب، ج ١٧، ص٢٠٦.
(٦٤) مفاتيح الغيب، ج ١٧، ص ١١٩.
(٦٥) روح المعاني، ج ٢٣، ص ٥٠.
(٦٦) التحرير والتنوير، ج ١٦، ص ٣٣٥.
(٦٧) روح المعاني، ج ٢٣، ص ٥٠.
(٦٨) التحرير والتنوير، ج١٦، ص ٣٣٦.
(٦٩) في ظلال القرآن، ج٤، ص ٢٣٦.
(٧٠) سورة فصلت: آية ١٥.
(٧١) نظم الدرر، ج٤، ص١٦٧.
(٧٢) مفاتيح الغيب، ج ٨، ص ٤٢٦.
(٧٣) مفاتيح الغيب، ج١١، ص ١٧٧.
(٧٤) الكشاف، ح ٤، ص٣٣٤.
(٧٥) التحرير والتنوير، ج ٩، ص ٣٥٢.